طاهر بن الحسين

أعـــلام القـــادة

القائد طاهر بن الحسين

هو طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق الأمير، مقدم الجيوش، ذو اليمينين [1]، كان جده رزيق بن ماهان مولى طلحة الطلحات الخزاعي المشهور بالكرم والجود المفرط، وكان طاهر من أكبر أعوان المأمون، وسيره من مرو كرسي خراسان لما كان المأمون بها إلى محاربة أخيه الأمين ببغداد لما خلع المأمون بيعته، والواقعة مشهورة، وسير الأمين أبا يحيى علي بن عيسى بن ماهان لدفع طاهر عنه، فتواقعا وقتل علي في المعركة. وتقدم طاهر إلى بغداد وأخذ ما في طريقه من البلاد، وحاصر بغداد والأمين بها، وقتله يوم الأحد لست أو أربع خلون من صفر سنة ثمان وتسعين ومائة، وقيل: إن طاهراً سير إلى المأمون يستأذنه في أمر الأمين إذا ظفر به، فبعث إليه بقميص غير مقور، فعلم أنه يريد قتله، فعمل على ذلك، والله أعلم؛ وحمل رأسه إلى خراسان ووضع بين يدي المأمون، وعقد للمأمون على الخلافة، فكان المأمون يرعاه لمناصحته وخدمته.

وقيل لطاهر ببغداد لما بلغ: ليهنك ما أدركته من هذه المنزلة التي لم يدركها أحد من نظرائك بخراسان، فقال: ليس يهنيني ذلك، لأني لا ارى عجائز بوشنج يتطلعن إلي من أعالي سطوحهن إذا مررت بهن، وإنما قال ذلك لأنه ولد ونشأ بها، وكان جده مصعب والياً عليها وعلى هراة.

(١) لقب بذلك لانه ضرب شخصا في واقعة علي بن عيسى فقده نصفين، وكانت الضربة بشماله، فقال فيه بعض الشعراء: كلتا يديك يمين حين تضربه، وقيل: لقب بذلك لان المأمون كتب إليه: يمينك يمين أمير المؤمنين، وشمالك يمين.وقيل: لانه ولي العراق وخراسان.

ولما حاصر الأمين، وظفر به، وقتله صبرا، مقته الناس لتسرعه في قتله.

وكان شهما مهيبا داهية جوادا ممدحا.

روى عن ابن المبارك وعمه علي بن مصعب.

روى عنه: ابنه عبد الله بن طاهر أمير خراسان، وابنه الاخر طلحة.

ومن كرمه المسرف أنه وقع يوما بصلات جزيلة بلغت ألف ألف وسبع مئة ألف درهم.

وقد مدحه مقدس بن صيفي الخلوقي الشاعر بثلاثة أبيات هي:

عجبت لحراقة ابن الحسين ::: لاغرقت كيف لا تغرق
وبحران من فوقها واحد ::: وآخر من تحتها مطبق
وأعجب من ذاك أعوادها ::: وقد مسها كيف لا تورق

فقال: أعطوه ألف دينار، وقال: زد حتى نزيدك.

فقال: حسبي.

وكان مع فرط شجاعته عالما خطيبا مفوها بليغا شاعرا، بلغ أعلى الرتب، ثم مات في الكهولة سنة سبع ومئتين[1].

مواقف من حياته:

سألتك عن مسألة فأجبت عن مسألتين:

حكي أن طاهر بن الحسين قال لأبي عبد الله المروزي: منذ كم صرت إلى العراق يا أبا عبد الله؟ قال: دخلت العراق منذ عشرين سنة وأنا منذ ثلاثين سنة صائم.

(١) سير أعلام النبلاء، ١٠ /١٠٨، وفيات الأعيان،٢ /٥١٨.

فقال: يا أبا عبد الله، سألتك عن مسألة فأجبت عن مسألتين[1].

يحمل الدراهم في كمه:

لما خرج طاهر بن الحسين إلى محاربة علي بن عيسى بن ماهان، جعل ذات يوم في كمه دراهم، يفرقها في الفقراء، ثم سها عنها، فأرسلها، فتبددت، فتطير بذلك، واغتم غماً شديداً، حتى تبين في وجهه، فأنشده شاعر كان في عسكره:

هذا تفرّق جمعهم لا غيره ::: وذهابه منكم ذهاب الهمّ
شيء يكون الهمّ بعض حروفه ::: لا خير في إمساكه في الكمّ

قال: فسلا طاهر، وأمر له بثلاثين ألف درهم[2].

من أشد الضيق إلى أفسح الفرج:

عن جبريل بن بختيشوع، في خبر طويل، أنه سمع المأمون يقول: كان لي بخراسان يوم عجيب، فأولى الله فيه بإحسانه جميلاً، لما توجه طاهر بن الحسين إلى علي بن عيسى بن ماهان، كما قد عرفتموه من ضعف طاهر وقوة علي، وقر في نفوس عسكري جميعاً، أن طاهراً ذاهب، ولحق أصحابي إضاقة شديدة، وظهرت فيهم خلة عظيمة، ونفد ما كان معي، فلم يبق منه لا قليل ولا كثير، وأفضيت إلى حال كان أصلح ما فيها الهرب، فلم أدر إلى أين أهرب، ولا كيف آخذ، وبقيت حائراً متفكراً.

فأنا - والله - كذلك وكنت نازلاً في دار أبوابها حديد، ولي مستشرفات أجلس فيها إذا شئت، وعدد غلماني ستة عشر غلاماً، لا

(١) أدب الدنيا والدين، ص١٢٨.
(٢) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص٤٦.

أملك غيرهم، وإذا بالقواد والجيش جميعاً قد شغبوا، وطلبوا أرزاقهم، ووافوا جميعاً يشتموني، ويتكلمون بكل قبيح.

فكان الفضل بن سهل بين يدي، فأمر بإغلاق الأبواب، وقال لي: قم فاصعد إلى المجلس الذي يستشرف فيه، إشفاقاً علي من دخولهم، وسرعة أخذهم إياي، وتعليلاً لي بالصعود.

فقلت: القوم يدخلون الساعة، فيأخذوني، فلأن أكون بموضعي، أصلح.

فقال لي: يا سيدي اصعد، فوالله، ما تنزل إلا خليفة.

فجعلت أهزأ به، وأعجب منه، وأحسب أنه إنما قال ما قال، ليسمعني، وأركنت للهرب من بعض أبواب الدار، فلم يكن إلى ذلك سبيل، لإحاطة القوم بالدار والأبواب كلها.

فالح علي أن أصعد، فصعدت وأنا وجل، فجلست في المستشرف، وأنا أرى العسكر[1].

كاتب طاهر بن الحسين:

لما قتل طاهر بن الحسين علي بن عيسى بن ماهان في خروجه إليه من بغداد، دعا بكاتبه ليكتب إلى الفضل بن سهل بخبره، فلم يكن في الكاتب فضل من إفراط الجزع وشدة الزمع، مما شاهده، فكتب طاهر بيده إلى الفضل، وكان من عادته أن يخاطبه بالإمارة، فأسقط ذلك وكتب إليه: أطال الله بقاءك، وكبت أعداءك، وجعل من يشنؤك فداءك، كتبت إليك ورأس علي ابن عيسى بين يدي وخاتمه في اصبعي، وعسكره تحت يدي، والحمد لله رب العالمين.

ثم لما نظر بالأمين وأنفذ رأسه إلى المأمون، قال الفضل بن

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص١٥٣.

سهل: ما فعل بنا طاهر! سل علينا سيوف الناس وألسنتهم، أمرناه أن يبعث به إلينا أسيراً، فبعث به عقيراً[1].

سكن جارية طاهر بن الحسين:

كانت مولدة، بيضاء، حسنة الوجه والغناء، شاعرة، ربيت في دار ابن بخسنر وأخذت الغناء منه ومن أبيه محمد وبناته وجواريه، وعن إسحاق الموصلي وطبقته، وسمعها إبراهيم بن المهدي وإبراهيم الموصلي، واستحسنا طبعها.

وقال إبراهيم: ليت شعري - هذا السيف - لمن يشحذ؟! وكانت مع هذا، قوية الطبع في قول الشعر: فذكر أحمد بن أبي طاهر، عن إبراهيم الطبري، أنها كانت قد حظيت عند طاهر، حظوة شديدة، ثم غلبتها عليه جارية أخرى ملكها، فانقطع عنها لمدة، - شغلاً بتلك - ثم اجتاز بحجرتها، فوثبت، فقبلت يده، فاستحيا منها، وقال لها: الليلة أزورك! فتأهبت وتزينت وتعطرت - ونسي طاهر وعده، وتشاغل عنها ليلته، فكتبت إليه:

ألا يأيها الملك الهمام ::: لأمرك طاعة ولنا ذمام
طمعنا في الزيارة وانتظرنا ::: فلم يك غير ذلك والسلام!

فلما قرأ الرقعة، أطربته وحركته وأهاجت دواعيه، فقام فدخل إليها، فأقام عندها ثلاثاً وعاد لها إلى ما كان عليه، وهي القائلة في عدول طاهر عنها:

للأمير المبارك الميمون ::: ذي اليمنين طاهر بن الحسين
كنت لي مدة، فصار شريكي ::: قيك من لم يكن له أن يكون
فكتمناك ضعف ما قد شكونا ::: من تجافيك والحديث شجون[2]

(١) ابن الأبار، إعتاب الكتاب، ص١٢.
(٢) أبو الفرج الأصبهاني، الإماء الشواعر، ص١٤.

ابن أبي عيينة يعزل والي البصرة:

كان إسماعيل بن جعفر بن سليمان والي البصرة، فأساء مجاورة محمد بن أبي عيينة فتباعد ما بينهما وقبح، وكان إسماعيل ينتقصه، فخرج محمد بن أبي عيينة إلى طاهر ابن الحسين يشكو إسماعيل بن جعفر ويطلب عزله عن البصرة، فصحب طاهر بن الحسين في بعض أسفاره فأدخل عليه ورفع حوائجه إليه وقال:

من أوحشته البلاد لم يقم ::: فيها، ومن آنسته لم يَرِمِ
ومن يبت والهموم قادحةٌ ::: في صدره بالسهاد لم ينمِ
ومن يرى النقص في مواطنه ::: يزل عن النقص موطئ القدم
والقرب ممن ينأى بحاجته ::: صدع على الشعب غير ملتئم[1]

لما انقبض طاهر بن الحسين بخراسان عن المأمون وأخذ حذره، أدب له المأمون وصيفاً بأحسن الآداب وعلمه فنون العلم، ثم أهداه إليه مع ألطاف كثيرة من طرائف العراق، وقد واطأه على أن يسمه، وأعطاه سم ساعة، ووعده على ذلك بأموال كثيرة. فلما انتهى إلى خراسان وأوصل إلى طاهر الهدية، قبل الهدية، وأمر بإنزال الوصيف في دار، وأجرى عليه ما يحتاج إليه من التوسعة في النزالة وتركه أشهراً. فلما برم الوصيف بمكانه كتب إليه: يا سيدي، إن كنت تقبلني فاقبلني وإلا فردني إلى أمير المؤمنين؛ فأرسل إليه وأوصله إلى نفسه. فلما انتهى إلى باب المجلس الذي كان فيه، أمره بالوقوف عند باب المجلس، وقد جلس على لبد أبيض وقرع رأسه، وبين يديه مصحف منشور وسيف مسلول، فقال: قد قبلنا ما بعث به أمير المؤمنين غيرك فإنا لا نقبلك، وقد صرفناك إلى أمير المؤمنين، ولي عندي جواب أكتبه، إلا ما ترى من حالي، فأبلغ أمير المؤمنين

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٢٧/١ - ٢٨.

السلام، وأعلمه بالحال التي رأيتني فيها. فلما قدم الوصيف على المأمون، وكلمه بما كان من أميره، ووصف له الحال التي رآه فيها؛ شاور وزراءه في ذلك وسألهم عن معناه، فلم يعلمه واحد منهم؛ فقال المأمون: لكني قد فهمت معناه: أما تقريعه رأسه وجلوس على اللبد الأبيض، فهو يخبرنا أنه عبد ذليل؛ وأما المصحف المنشور؛ فإنه يذكرنا بالعهود التي له علينا؛ وأما السيف المسلول، فإنه يقول: إن نكثت تلك العهود فهذا يحكم بيني وبينك، أغلقوا عنا باب ذكره، ولا تهيجوه في شيء مما هو فيه. فلم يهجه المأمون حتى مات طاهر بن الحسين، وقام عبد الله بن طار بن الحسين مكانه، فكان أخف الناس على المأمون.

وكتب طاهر بن الحسين إلى المأمون في إطلاق بن السندي من حبسه، وكان عامله على مصر فعزله عنها وحبسه، فأطلقه له وكتب إليه:

أخي أنت ومولاي ::: فما ترضاه أرضاه
وما تهوى من الأمر ::: فإني أنا أهواه
لك الله على ذاك ::: لك الله لك الله[1]

المادح ولده مدحاً حسناً:

كتب المأمون إلى طاهر بن الحسين: صف لي ابنك فقال: ابني إن مدحته ذممته ظلمته إلا أنه نعم الخلف لسيده من عبده، إذا اخترمت عبده منيته! فكتب إليه المأمون: يا ذا اليمينين، لم ترض بمدحه حتى أوصيت به! وقال له يوماً: أخبرني عن ابنك. فقال: قدح في كف مثقف ليوم رهان أمير المؤمنين! [2]

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١٥٦/١.
(٢) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ٤٦/١.

العلويون وآل طاهر:

حدثني أبي، قال: حدثني الصولي، أن عبيد الله بن عبد الله بن طاهر حدثه، قال: لما عاد محمد بن عبد الله، أخي من مقتل يحيى بن عمر العلوي ﷺ، بعد مديدة، دخلت إليه بعد ذلك يوماً سحراً، وهو كئيب مطأطئ الرأس، في أمر عظيم، كأنه قد عرض على السيف، وبعض جواريه قيام لا يتجاسرن على مسألته، وأخته واقفة.

فلم أقدم على خطابه، فأومأت إليها، ما له؟ قالت: رأى رؤيا هالته.

فتقدمت إليه، وقلت: أيها الأمير، روي عن النبي ﷺ، أنه قال: إذا رأى أحدكم في منامه ما يكره، فليتحول من جانبه إلى الآخر، وليقل ثلاثاً استغفر الله، ويلعن إبليس، ويستعيذ بالله، ثم ينام.

فرفع رأسه وقال: يا أخي، فكيف إذا كانت الطامة من جهة رسول الله ﷺ. فقلت: أعوذ بالله.

فقال لي: ألست ذاكراً رؤيا طاهر بن الحسين؟ فقلت: بلى.

قال عبيد الله: وكان طاهر، وهو صغير الحال رأى النبي ﷺ في منامه، فقال له: يا طاهر، إنك ستبلغ من الدنيا أمراً عظيماً، فاتق الله، واحفظني في ولدي، فإنك لا تزال محفوظاً ما حفظتني في ولدي.

فقال: ما تعرض طاهر لقتال علوي قط، وندب إلى ذلك غير دفعة فامتنع عنه.

ثم قال لي أخي محمد بن عبد الله: إني رأيت البارحة رسول الله ﷺ في منامي، كأنه يقول لي: يا محمد، نكثتم؟ فانتبهت فزعاً، وتحولت، واستغفرت الله تعالى، وتعوذت من إبليس، ولعنته، واستغفرت الله تعالى ونمت.

فرأيته ﷺ، ثانية، وهو يقول: يا محمد، نكثتم؟ ففعلت كما فعلت في الأولة.

فرأيته ﷺ وهو يقول: نكثتم وقتلتم أولادي، لا تفلحون بعدها أبداً.

فانتبهت، وأنا على هذه الحال، وهذه الصورة، منذ نصف الليل ما نمت.

قال: واندفع يبكي، وبكيت معه.

فما مضت على ذلك إلا مديدة، حتى مات محمد، ونكبنا بأسرنا أقبح نكبة، وصرفنا عن ولاياتنا، ولم يزل أمرنا يخمل، حتى لم يبق لنا اسم على منبر، ولا علم في جيش، ولا إمارة. وحصلنا إلى الآن تحت المحن[1].

وما عليه في ذلك؟

قال أبو الفرج الأصبهاني: حدثني أحمد بن أبي طاهر قال: حدثني أبو دعامة علي بن يزيد قال: حدثني التميمي أو محمد قال: دخلت على الحسن بن سهل فأنشدته مديحاً في المأمون ومديحاً فيه، وعنده طاهر بن الحسين، فقال له طاهر: هذا والله أيها الأمير الذي يقول في محمد المخلوع:

لا بد من سكرة على طرب ::: لعل روحاً يدال من كرب
خليفة الله خير منتخب ::: خير أم من هاشم وأب
خلافة الله قد توارثها ::: آباؤه في سوالف الكتب
فهي له دنكم لمورثة ::: عن خاتم الأنبياء في الحقب
يا ابن الذي في ذوائب الش ::: رف الأقدم أنتم دعائم العرب

قال الحسن: عرض والله ابن اللخناء بأمير المؤمنين، والله

(١) القاضي التنوخي، نشوار المحاضرة، ١/١١٢ - ١١٣.

لأعلمنه، وقام إلى المأمون فأخبره فقال له المأمون: وما عليه في ذلك؟ رجل أمل رجلا فمدحه، والله لقد أحسن لنا وأساء إليه، إذ لم يقترب إليه إلا بشرب الخمر، ثم دعاني فخلع علي وأمر لي بعشرة آلاف درهم [1].

من كلامه:

- قال طاهر بن الحسين:

ركوبك الأمر ما لم تبد فرصته ::: جهل ورأيك في الإقحام تغرير

فاعمل صوابا وخذ بالحزم مأثرة فلن يذم لأهل الحزم تدبير [2].

- كَتَبَ طَاهِرُ بْنُ الحُسَيْن: إلى العباس بن موسى الهادي و قَدْ استبطأه في خَراج ناحيته:

وَلَيْسَ أَخُو الحاجاتِ مَنْ بات نائماً ::: ولَكنْ أَخُوها مَنْ يَبيتُ على وَجَلْ [3]

من خطب طاهر بن الحسين:

- خطبة طاهر بن الحسين ببغداد بعد مقتل الأمين :

ودخل طاهر بن الحسين بغداد يوم الجمعة بعد قتل الأمين فصلى بالناس وخطبهم خطبة بليغة وقد حضره من بنى هاشم والقواد وغيرهم جماعة كثيرة قال: الحمد لله مالك الملك يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير لا يصلح عمل المفسدين ولا يهدى كيد الخائنين إن ظهور غلبتنا لم يكن من أيدينا ولا كيدنا بل اختار الله

(١) القاضي التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، ٣٠/١.

(٢) أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك، تحقيق محي هلال السرحان وحسن الساعاتي، دار النهضة العربية - بيروت - ١٩٨١م، ص٤١.

(٣) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٢٧/١ - ٢٨.

للخلافة إذ جعلها عمادا لدينه وقواما لعباده وضبط الأطراف وسد الثغور وإعداد العدة وجمع الفيء وإنفاذ الحكم ونشر العدل وإحياء السنة بعد إذبال البطالات والتلذذ بمريق الشهوات والمخلد إلى الدنيا مستحسن لداعي غرورها محتلب درة نعمها ألف لزهرة روضتها كلف برونق بهجتها، وقد رأيتم من وفاء موعود الله عز و جل لمن بغى عليه وما أحل به من بأسه ونقمته لما نكب عن عهده وارتكب معصيته وخالف أمره وغيره ناهية وعظته مؤدبة، فتمسكوا بدقائق عصم الطاعة، واسلكوا مناحى سبيل الجماعة واحذروا مصارع أهل الخلاف والمعصية الذين قدحوا زناد الفتنة وصدعوا شعب الألفة فأعقبهم الله خسار الدنيا والآخرة[1].

- وصية طاهر بن الحسين لابنه عبد الله لما ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما سنة ٢٠٦ هـ :

بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له وخشيته ومراقبته ومزايلة سخطه وحفظ رعيتك، والزم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعادك، وما أنت صائر إليه وموقوف عليه، ومسؤول عنه والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله وينجيك يوم القيامة من عذابه وأليم عقابه، فإن الله قد أحسن إليك وأوجب عليك الرأفة بمن استرعاك أمرهم من عباده وألزمك العدل عليهم والقيام بحقه وحدوده فيهم والذب عنهم والدفع عن حريمهم وبيضتهم، والحقن لدمائهم والأمن لسبيلهم، وإدخال الراحة عليهم في معايشهم، ومؤاخذك بما فرض عليك من ذلك وموقفك عليه ومسائلك عنه ومثيبك عليه بما قدمت وأخرت ففرغ لذلك فكرك وعقلك وبصرك ورؤيتك، ولا يذهلك عنه ذاهل، ولا يشغلك عنه شاغل، فإنه رأس

(١) جمهرة خطب العرب، ٣ /١١٩.

أمرك وملاك شأنك، وأول مايوفقك الله به لرشدك، وليكن أول ما تلزم به نفسك وتنسب إليه فعالك المواظبة على ما افترض الله عليك من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس قبلك في مواقيتها على سننها في إسباغ الوضوء لها وافتتاح ذكر الله فيها وترتل في قراءتك، تمكن في ركوعك وسجودك، وتشهدك ولتصدق فيها لربك نيتك واحضض عليها جماعة من معك وتحت يدك، وادأب عليها فإنها كما قال الله: تأمر بالمعروف وتنهى عن الفحشاء والمنكر، ثم أتبع ذلك الأخذ بسنن رسول الله، والمثابرة على خلائقه، واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده، وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله وتقواه ولزوم ما أنزل الله في كتابه من أمره ونهيه وحلاله وحرامه، وائتمام ما جاءت به الآثار عن النبي، ثم قم فيه بما يحق لله عليك، ولا تمل عن العدل فيما أحببت أو كرهت لقريب من الناس أو بعيد، وآثر الفقه وأهله والدين وحملته، وكتاب الله والعاملين به، فإن أفضل ما تزين به المرء الفقه في دين الله والطلب له والحث عليه والمعرفة بما يتقرب به إلى الله، فإنه الدليل على الخير كله والقائد له والآمر به والناهي عن المعاصي والموبقات كلها، وبها مع توفيق الله تزداد العباد معرفة بالله عز و جل وإجلالا له ودركا للدرجات العلا في المعاد مع مالقى ظهوره للناس من التوقير لأمرك والهيبة لسلطانك والأنسة بك والثقة بعدلك وعليك بالاقتصاد في الأمور كلها، فليس شيء أبين نفعا ولا أحضر أمنا ولا أجمع فضلا من القصد، والقصد داعية إلى الرشد والرشد دليل على التوفيق والتوفيق قائد إلى السعادة وقوام الدين والسنن الهادية بالاقتصاد فآثره في دنياك كلها ولا تقصر في طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة والسنن المعروفة ومعالم الرشد، فلا غاية للاستكثار من البر والسعي له إذا

كان يطلب به وجه الله ومرضاته ومرافقة أوليائه في دار كرامته واعلم أن القصد في شأن الدنيا يورث العز ويحصن من الذنوب وإنك لن تحوط نفسك ومن يليك ولا تستصلح أمورك بأفضل منه فأته واهتد به تتم أمورك وتزد مقدرتك وتصلح خاصتك وعامتك وأحسن الظن بالله عز و جل تستقم لك رعيتك والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلها تستدم به النعمة عليك، ولا تتهمن أحدا من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشف أمره فإن إيقاع التهم بالبرآء والظنون السيئة بهم مأثم، واجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك واطرد عنك سوء الظن بهم، وارفضه فيهم يعينك ذلك على اصطناعهم ورياضتهم ولا يجدن عدو الله الشيطان في أمرك مفخرا فإنه إنما يكتفي بالقليل من وهنك فيدخل عليك من الغم في سوء الظن ما ينغصك لذاذة عيشك.

واعلم أنك تجد بحسن الظن قوة وراحة وتكفى به ما أحببت كفايته من أمورك وتدعو به الناس إلى محبتك والاستقامة في الأمور كلها لك، ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك والرأفة برعيتك أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورك والمباشرة لأمور الأولياء والحياطة للرعية والنظر فيما يقيمها ويصلحها، بل لتكن المباشرة لأمور الأولياء والحياطة للرعية والنظر في حوائجهم وحمل مئوناتهم أثر عندك مما سوى ذلك، فإنه أقوم للدين وأحيا للسنة وأخلص نيتك في جميع هذا وتفرد بتقويم نفسك تفرد من يعلم أنه مسؤول عما صنع، ومجزى بما أحسن ومأخوذ بما أساء، فإن الله جعل الدين حرزا وعزا ورفع من اتبعه وعززه فاسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وطريقة الهدى، وأقم حدود الله في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ولا تعطل ذلك ولا تهاون به

ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة، فإن في تفريطك في ذلك لما يفسد عليك حسن ظنك واعزم على أمرك في ذلك بالسنن المعروفة وجانب الشبه والبدعات يسلم لك دينك وتقم لك مروءتك وإذا عاهدت عهدا نوف به، وإذا وعدت الخير فأنجزه، وأقبل الحسنة وادفع بها وأغمض عن عيب كل ذى عيب من رعيتك، واشدد لسانك عن قول الكذب والزور، وأبغض أهله وأقص أهل النميمة فإن أول فساد أمرك في عاجل الأمور وآجلها تقريب الكذوب والجرأة على الكذب؛ لأن الكذب رأس المآثم والزور والنميمة خاتمتها لأن النميمة لا يسلم صاحبها وقائلها لا يسلم له صاحب ولا يستقيم لمطيعها أمر وأحب أهل الصدق والصلاح وأعز الأشراف بالحق وواصل الضعفاء وصل الرحم وابتغ بذلك وجه الله وعزة أمره والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة واجتنب سوء الأهواء والجور واصرف عنهما رأيك وأظهر براءتك من ذلك لرعيتك وأنعم بالعدل في سياستهم وقم بالحق فيهم وبالمعرفة التي تنتهى بك إلى سبيل الهدى واملك نفسك عند الغضب وآثر الوقار والحلم وإياك والحدة والطيش والغروز فيما أنت بسبيله وإياك أن تقول إنى مسلط أفعل ما أشاء فإن ذلك سريع بك إلى نقص الرأي وقلة اليقين بالله وحده لا شريك له وأخلص لله النية فيه واليقين به واعلم أن الملك لله يعطيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ولن تجد تغير النعمة وحلول النقمة إلى أحد أسرع منه إلى حملة النعمة من أصحاب السلطان والمبسوط لهم في الدولة إذا كفروا بنعم الله وإحسانه واستطالوا بما آتاهم الله من فضله ودع عنك شره نفسك ولتكن ذخائرك وكنوزك التي تدخر وتكنز البر والتقوى والمعدلة واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم والتفقد لأمورهم والحفظ لدهمائهم والإغاثة لملهوفهم واعلم أن الأموال إذا كثرت وذخرت في الخزائن

لا تثمر وإذا كانت في إصلاح الرعية وإعطاء حقوقهم وكف المئونة عنهم نمت وربت وصلحت به العامة وتزينت به الولاة وطاب به الزمان واعتقد فيه العز والمنعة فليكن كنز خزانتك تفريق الأموال في عمارة الإسلام وأهله ووفر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم وأوف رعيتك من ذلك حصصهم وتعهد ما يصلح أمورهم ومعايشهم فإنك إذا فعلت ذلك قرت النعمة عليك واستوجبت المزيد من الله وكنت بذلك على جباية خراجك وجمع أموال رعيتك وعملك أقدر وكان الجمع لما شملهم من عدلك وإحسانك أساس لطاعتهم وأطيب نفسا لكل ما أردت فاجهد نفسك فيما حددت لك في هذا الباب ولتعظم حسبتك فيه فإنما يبقى من المال ما أنفق في سبيل حقه واعرف للشاكرين شكرهم وأثبهم عليه وإياك أن تنسيك الدنيا وغرورها هول الاخرة فتتهاون بما يحق عليك فإن التهاون يوجب التفريط والتفريط يورث البوار وليكن عملك لله وفيه تبارك وتعالى وارج الثواب، فإن الله قد أسبغ عليك نعمته في الدنيا وأظهر لديك فضله فاعتصم بالشكر وعليه فاعتمد يزدك الله خيرا وإحسانا، فإن الله يثيب بقدر شكر الشاكرين وسيرة المحسنين وقضى الحق فيما حمل من النعم وأليس من العافية والكرامة ولا تحقرن ذنبا ولا تمالئن حاسدا ولا ترحمن فاجرا ولا تصلن كفورا ولا تداهنن عدوا ولا تصدقن نماما، ولا تأمنن غدارا، ولا توالين فاسقا، ولاتتبعن غاويا ولا تحمدن مرائيا ولاتحقرن إنسانا ولا تردن سائلا فقيرا ولا تجيبن باطلا، ولا تلاحظن مضحكا، ولا تخلفن وعدا، ولا تزهون فخرا ولا تظهرن غضبا ولا تأتين بذخا ولا تمشين مرحا، ولا تركبن سفها ولا تفرطن في طلب الآخرة، ولا ترفع للنمام عينا، ولا تغمضن عن الظالم رهبة منه أو مخافة، ولا تطلبن ثواب الآخرة بالدنيا وأكثر

مشاورة الفقهاء واستعمل نفسك بالحلم، وخذ عن أهل التجارب وذوي العقل والرأى والحكمة ولا تدخلن في مشورتك أهل الدقة والبخل ولا تسمعن لهم قولا، فإن ضررهم أكثر من منفعتهم وليس شيء أسرع فسادا لما استقبلت في أمر رعيتك من الشح واعلم أنك إذا كنت حريصا كنت كثير الأخذ قليل العطية، وإذا كنت كذلك لم يستقم لك أمرك إلا قليلا فإن رعيتك إنما تعتقد على محبتك بالكف عن أموالهم وترك الجور عنهم ويدوم صفاء أوليائك لك بالإفضال عليهم وحسن العطية لهم، فاجتنب الشح، واعلم أنه أول ما عصي به الإنسان ربه، وأن العاصي بمنزلة خزى وهو قول الله عز و جل:{وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ} [الحشر: ٩]، فسهل طريق الجود بالحق واجعل للمسلمين كلهم من نيتك حظا ونصيبا وأيقن أن الجود من أفضل أعمال العباد فأعدده لنفسك خلقا وأرض به عملا ومذهبا وتفقد أمور الجند في دواوينهم ومكاتبهم وأدرر عليهم أرزاقهم ووسع عليهم في معايشهم ليذهب بذلك الله فاقتهم ويقوم لك أمرهم ويزيد به قلوبهم في طاعتك وأمرك خلوصا وانشراحا وحسب ذى سلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته رحمة في عدله وحيطته وإنصافه وعنايته وشفقته وبره وتوسعته فزايل مكروه أحد البابين باستشعار تكملة الباب الآخر ولزوم العمل به تلق إن شاء الله نجاحا وصلاحا وفلاحا واعلم أن القضاء من الله بالمكان الذى ليس به شيء من الأمور لأنه ميزان الله الذى يعتدل عليه الأحوال في الأرض وبإقامة العدل في القضاء والعمل تصلح الرعية وتأمن السبل وينتصف المظلوم ويأخذ الناس حقوقهم وتحسن المعيشة، ويؤدى حق الطاعة ويرزق الله العافية والسلامة ويقوم الدين وتجري السنن والشرائع وعلى مجاريها يتنجز الحق والعدل في القضاء واشتد في

أمر الله وتورع عن النطف وامض لإقامة الحدود وأقلل العجلة وابعد من الضجر والقلق واقنع بالقسم ولتسكن ريحك ويقر جدك وانتفع بتجربتك وانتبه في صمتك واسدد في منطقك وأنصف الخصم وقف عند الشبهة وأبلغ في الحجة ولا يأخذك في أحد من رعيتك محاباة ولا محاماة ولا لوم لائم وتثبت وتأن وراقب وانظر وتدبر وتفكر واعتبر وتواضع لربك وارأف بجميع الرعية وسلط الحق على نفسك ولا تسرع إلى سفك دم فإن الدماء من الله بمكان عظيم انتهاكا له بغير حقها وانظر هذا الخراج الذى قد استقامت عليه الرعية وجعله الله للاسلام عزا ورفعة ولأهله سعة ومنعة ولعدوه وعدوهم كبتا وغيظا ولأهل الكفر من معاديهم ذلا وصغارا فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم فيه ولا ترفعن منه شيئا عن شريف لشرفه ولا عن غنى لغناه ولا عن كاتب لك ولا أحد من خاصتك ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له ولا تكلفن أمرا فيه شطط واحمل الناس كلهم على مر الحق؛ فإن ذلك أجمع لألفتهم وألزم لرضا العامة واعلم أنك جعلت بولايتك خازنا وحافظا وراعيا وإنما سمى أهل عملك رعيتك لأنك راعيهم وقيمهم تأخذ منها ما أعطوك من عفوهم ومقدرتهم وتنفقه في قوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أودهم فاستعمل عليهم في كور عملك ذوي الرأي والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل والعلم بالسياسة والعفاف ووسع عليهم في الرزق فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأسند إليك ولا يشغلنك عنه شاغل ولا يصرفنك عنه صارف فإنك متى آثرته وقمت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك وحسن الأحدوثة في عملك واحترزت النصحة من رعيتك وأعنت على الصلاح فدرت الخيرات ببلدك وفشت العمارة بناحيتك وظهر الخصب في كورك فكثر

خراجك وتوفرت أموالك وقويت بذلك على ارتباط جندك وإرضاء العامة بإفاضة العطاء فيهم من نفسك وكنت محمود السياسة مرضى العدل في ذلك عند عدوك وكنت في أمورك كلها ذا عدل وقوة وآلة وعدة فنافس في هذا ولا تقدم عليه شيئا تحمد مغبة أمرك إن شاء الله واجعل في كل كورة من عملك أمينا يخبرك أخبار عمالك ويكتب إليك بسيرتهم وأعمالهم حتى كأنك مع كل عامل في عمله معاين لأمره كله وإن أردت أن تأمره بأمر فانظر في عواقب ما أردت من ذلك فإن رأيت السلامة فيه والعافية ورجوت فيه حسن الدفاع والنصح والصنع فأمضه وإلا فتوقف عنه وراجع أهل البصر والعلم ثم خذ فيه عدته فإنه ربما نظر الرجل في أمر من أمره قد واتاه على ما يهوى فقواه ذلك وأعجبه وإن لم ينظر في عواقبه أهلكه ونقض عليه أمره فاستعمل الحزم في كل ما أردت وباشره بعد عون الله بالقوة وأكثر استخارة ربك في جميع أمورك واقرغ من عمل يومك ولا تؤخره لغدك وأكثر مباشرته بنفسك فإن لغد أمورا وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذى أخرت واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه فإذا أخرت عمله اجتمع عليك أمر يومين فشغلك ذلك حتى تعرض عنه فإذا أمضيت لكل يوم عمله أرحت نفسك وبدنك وأحكمت أمور سلطانك وانظر أحرار الناس وذوي الشرف منهم ثم استيقن صفاء طويتهم وتهذيب مودتهم لك ومظاهرتهم بالنصح والمخالصة على أمرك فاستخلصهم وأحسن إليهم وتعاهد أهل البيوتات ممن دخلت عليهم الحاجة فاحتمل مئونتهم وأصلح حالهم حتى لا يجدوا لخلتهم مسا وأفرد نفسك بالنظر في أمور الفقراء والمساكين ومن لا يقدر على رفع مظلمته إليك والمحتقر الذي لا علم له بطلب حقه فاسأل عنه أحفى مسألة ووكل بأمثاله أهل الصلاح من

رعيتك ومرهم برفع حوائجهم وحالاتهم إليك لتنظر فيها بما يصلح الله به أمرهم وتعاهد ذوي البأساء ويتاماهم وأراملهم واجعل لهم أرزاقا من بيت المال اقتداء بأمير المؤمنين أعزه الله في العطف عليهم والصلة لهم ليصلح الله بذلك عيشهم ويرزقك به بركة وزيادة وأجر للأضراء من بيت المال وقدم حملة القرآن منهم والحافظين لأكثره في الجراية على غيرهم وانصب لمرضى المسلمين دورا تؤويهم وقواما يرفقون بهم وأطباء يعالجون أسقامهم وأسعفهم بشهواتهم مالم يؤد ذلك إلى سرف في بيت المال واعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم وأفضل أمانيهم لم يرضهم ذلك ولم تطب أنفسهم دون رفع حوائجهم إلى ولاتهم طمعا في نيل الزيادة وفضل الرفق منهم وربما برم المتصفح لأمور الناس لكثرة ما يرد عليه ويشغل فكره وذهنه منها ما ينالـه به مؤنة ومشقة وليس من يرغب في العدل ويعرف محاسن أموره في العاجل وفضل ثواب الآجل كالذى يستقبل مايقربه إلى الله ويلتمس رحمته به وأكثر الإذن للناس عليك وأبرز لهم وجهك وسكن لهم أحراسك واخفض لهم جناحك وأظهر لهم بشرك ولن لهم في المسألة والمنطق واعطف عليهم بجودك وفضلك وإذا أعطيت فأعط بسماحة وطيب نفس والتمس الصنيعة والأجر غير مكدر ولا منان فإن العطية على ذلك تجارة مربحة إن شاء الله واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومن مضى من قبلك من أهل السلطان والرياسة في القرون الخالية والأمم البائدة ثم اعتصم في أحوالك كلها بأمر الله والوقوف عند محبته والعمل بشريعته وسنته وإقامة دينه وكتابه واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ودعا إلى سخط الله واعرف ما تجمع عمالك من الأموال وما ينفقون منها ولا تجمع حراما ولا تنفق إسرافا وأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم

وليكن هواك اتباع السنن وإقامتها وإيثار مكارم الأمور ومعاليها وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك من إذا رأى عيبا فيك لم يمنعه هيبتك من إنهاء ذلك إليك في سر وإعلامك ما فيه من النقص فإن أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك لك وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتابك فوقت لكل رجل منهم في كل يوم وقتا يدخل عليك فيه بكتبه ومؤامرته وما عنده من حوائج عمالك وأمر كورك ورعيتك ثم فرغ لما يورده عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك وكرر النظر إليه والتدبير له فما كان موافقا للحزم والحق فأمضه واستخر الله فيه وما كان مخالفا لذلك فاصرفه إلى التثبيت فيه والمسألة عنه ولا تمنن على رعيتك ولا على غيرهم بمعروف تأتيه إليهم ولا تقيل من أحد منهم إلا الوفاء والاستقامة والعون في أمور أمير المؤمنين ولا تضعن المعروف إلا على ذلك وتفهم كتابي إليك وأكثر النظر فيه والعمل به واستعن بالله على جميع أمورك واستخره فإن الله مع الصلاح وأهله وليكن أعظم سيرتك وأفضل رعيتك ما كان لله رضا ولدينه نظاما ولأهله عزا وتمكينا وللذمة والملة عدلا وصلاحا وأنا أسأل الله أن يصلح عونك وتوفيقك ورشدك وكلاءتك وأن ينزل عليك فضله ورحمته بتمام فضله عليك وكرامته لك حتى يجعلك أفضل أمثالك نصيبا وأوفرهم حظا وأسناهم ذكرا وأمرا وأن يهلك عدوك ومن ناوأك وبغى عليك ويرزقك من رعيتك العافية ويحجز الشيطان عنك ووساوسه حتى يستعلي أمرك بالعز والقوة والتوفيق إنه قريب مجيب وكروا أن طاهرا لما عهد إلى ابنه عبد الله هذا العهد تنازعه الناس وكتبوه وتدارسوه وشاع أمره حتى بلغ المأمون فدعا به وقرئ عليه فقال ما بقي أبو الطيب يعني طاهرا شيئا من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأي والسياسة وإصلاح الملك والرعية وحفظ البيضة

وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به وتقدم وأمر أن يكتب بذلك إلى جميع العمال في نواحي الأعمال [1].

- وقال طاهر بن الحسين بن مصعب: ويكفيك من قوم شواهد أمرهم فخذ صفوهم قبل امتحان الضمائر فإن امتحان القوم يوحش منهم وما لك إلا ما ترى في الظواهر وإنك إن كشفت لم تر مخلصا وأبدى لك التجريب خبث السرائر وكان يقال بعض التغافل فضيلة، وتمام الجود الإمساك عن ذكر المواهب، ومن الكرم أن تصفح عن التوبيخ، وأن تلتمس ستر هتك الكريم [2].

- وكتب طاهر بن الحسين إلى المأمون لما فتح بغداد وقتل محمداً الأمين: أما بعد، فإن المخلوع ولو كان قسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمة، لقد فرق الله بينهما في الولاية والحرمة، لمفارقته عصمة الدين، وخروجه عن الأمر الجامع للمسلمين. قال الله عز وجل: {يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ} [هود: ٤٦]. ولا صلة لأحدٍ في معصية الله، ولا قطيعة في ذات الله. وكتبت إلى أمير المؤمنين وقد قتل المخلوع ورداه الله رداء نكبة، وأحمد لأمير المؤمنين أمره، وأنجز له ما كان ينتظر من صادق وعده. والحمد لله المتولي لأمير المؤمنين بنعمته، والراجع إليه بمعلوم حقه، والكائد له ممن ختر عهده ونكث عقده، حتى رد له الألفة بعد تفريقها، وأحيا الأعلام بعد دروس أثرها، ومكن له في الأرض بعد شتات أهلها [1].

---

(١) جمهرة خطب العرب، ٣ /١٣٥ - ١٤٢.

(٢) عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ١٩/٤٤.

(١) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م، ٥/١٤٣.

- وقال طاهر بن الحسين:

اعمل صواباً تنل بـــالحزم مـــأثرةً ::: فلن يـــذم لأهـــل الحـــزم تـــدبير
فإن هلكت برأيٍ أو ظفـــرت بـــه ::: فأنت عند ذوي الألباب معـــذور
وإن ظفرت على جهلٍ وفزت بـــه ::: قالوا: جهول أعانتـــه المقـــادير[1]

- وكتب إلى أبي الحسين بن فراسكين، وكان يؤدب ولده:

حثّ الكريم على التفضُّل بدعـــة ::: يا خير من يمشي على وجه الثـــرى
جاء الشتاء ولست أملك درهمـــاً ::: والاعتماد عليك، فانظر ما ترى[2]

* * *

(١) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ٧٣/٦.
(٢) الثعالبي، يتيمة الدهر، ١٢٩/٢.